الاستفهام في سورة يوسف: دراسة لسانية تداولية

The question in Surat Yusuf : linguistique and pragmatic study

الطالب: أحمد مزواغي

إشراف: أ.د/ محمد ملياني

قسم اللغة العربية-أحمد بن بلة-وهران01(الجزائر)

ahmedmezouaghi48@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2018/05/21 تاريخ المراجعة:2018/06/06 تاريخ النشر: 2018/06/10

الملخص:

الاستفهام من الأساليب الإنشائية الطلبية ذات الأهمية البالغة في عمليتي الحوار والاقناع؛ اذ لا يمكن للمرسل أو القائم بالاتصال بأي حال من الأح وال الاستغناء عنه في العملية التواصلية و التبليغية، فهو وقود الحوار وبه تتسع رقعته بين الطرفين المتحاورين أو الأطراف المتحاورة، فكلما زادت رقعة الحوار اتساعا زادت و اتسعت مساحة الحجاج، وارتفعت نسبة الاقناع فيها.

ولعلّ الاستفهام بنوعيه الحقيقي و المجازي كان حاضرا في سورة يوسف(عليه السلام)، و شكل أهمية بالغة في العملية التواصلية التبليغية ببناء حلقة الحوار بين شخصيات قصتها سواء ما دار بين يوسف(عليه السلام) و إخوته أو بنيه و بين السجينين، أو ما دار بين يعقوب . عليه السلام . و أبنائه، أو ما دار بين اخوة يوسف مع بعضهم البعض.

وقد حاولت في هذا المقال الموسوم بالاستفهام في سورة يوسف (دراسة لسانية تداولية) أن أعالج مفهوم الاستفهام لغة واصطلاحا و التعرف على نوعيه الحقيقي و المجازي وأهميته التبليغية والحجاجية في العملية التواصلية و أثره الإقناعي في سورة يوسف (عليه السلام)

الكلمات المفتاحية: البلاغة ; الاستفهام ; التبليغ ; التواصل ; الحوار ; الحجاج ; الاقناع.

The summary :

This article, entitled "the interrogative form in Youssef's surat, a linguistic and pragmatic study", proposes to treat the concept of interrogation, to understand it from its linguistic and terminological angles, and to detect its two modes of expression, namely the meaning proper or real and the figurative or metaphorical sense and to grasp its importance to inform and argue in the communicative act and its effects of persuasion.

Etymologically, the Arabic word "el istifham" means the search for understanding. Similarly, on the terminology side, the word refers to this attitude of collecting information on a specific object / subject. This in no way excludes the possibility that the one who interrupts could be well informed on the question which he poses but which, all the same, aspires to require in another sense. Multiple senses which would, of course, be contextually determined and which can express the psychological state or emotional of this applicant.

This plethora of meaning is conceived in rhetorical studies as rhetorical goals / objectives or eloquence assignments.

It would still be necessary for the rhetoricians to grasp the concept of interrogation in a double dimension of that of the proper use that makes prevail the real or usual aspect and that of the figurative use that makes prevail the metaphorical aspect.

While interrogation in its own or real sense rather objects the question in its natural order that is not ready for any metaphorical figuration and aimed essentially at the search for understanding and the desire to reveal the mysterious, the questioning in the figurative sense, lends itself to other objectives or rhetorical assignments which are very diversified but which can be surrounded by the context, and of which it is the subject of Arabic rhetoric in general and Koranic in particular, or the it is argued for its benefits to argue and convince.

Indeed, the two forms of interrogation, that is to say the interrogation in its own or real aspect, and the interrogation in its figurative or metaphorical aspect, are present in the Surat of Youssef. This presence has, indeed, , provided a fulcrum of great importance in the communication and informational operation. It is obvious that this usual physiology has created a timely atmosphere or develops the dialogue between the characters of the story, so we hear a dialogue between Youssef and his brother, or between Youssef and the prisoners. As there is on the other side

the dialogue which begins soon Jacob (peace be upon him) and his sons, sometimes between the brothers of Youssef them -Same.

The interrogation in its proper and actual dimension in Youssef's surah is a form of questioning, or rather, this attitude of wanting to know, like the question posed by the king to women, concerning the incident of the attempt to seduction: "what was your intention, when you stew seduce to seduce Youssef", reveals that the one who interrupts was essentially trying to find out about the incident and to seize details.

However, the interrogation in its figurative or metaphorical aspect in the sura seized under the different assignments of eloquonce that is an affirmation or a negation, a reproach or a repugnance or a call of attention, constitutes an impregnable range in our study.Nothing more because it is commonly believed that the figured dimension of the interrogation is, at first glance, an asset on the establishment of dialogue processes. This is obvious in the passage or Youssef interrogue the two prisoners "what is better a miltitude of divinities or a single God, supreme domineering", the interrogation proves to be a proof is an argument of the existence of a God who has no equal.

As a result, interrogation is revealed as a style or a constructive form of contribution, perative or vocative, of paramount importance in the process of dialogue and persecution which the sender is forced to use.
key words: Rhetoric-interrogation-information-dialogue-argumentation-persuation (to convince).

تقديم:

الاستفهام لغة؛ طلب الفهم ، وفي لسان العرب(لابن منطور) « استفهمه أي: سأله أن يفهمه»[1].

وأما اصطلاحا فمعناه؛ الاستخبار عن الشيء، لكن قد يكون المستفهم عالما بالشيء، و مراده بعض المعاني الاخرى التي يمكن أن تستفاد من سياق الكلام، و من هنا استعمل البلاغيون مصطلح الاستفهام لمعناه الحقيقي و غير الحقيقي (المجازي).

فأما الاستفهام الحقيقي؛ هو الذي يرد على ما استعمل له في الاصل أي: طلب الفهم و معرفة المجهول كأن تقول مثلا: من أنت؟ أين تسكن؟ ما مستواك الدراسي؟ هل تتقن اللغة العربية؟ أتحفظ القران الكريم؟ فالغرض من هذه الاستفهامات هو الاستفسار و معرفة الاجابة.

و أما الاستفهام المجازي؛ يراد به الاستفهام الذي يخرج عن حقيقته و يكون صاحبه عالما بالشيء وغرضه منه معان أخرى تفهم من السياق أي: يخرج الى أغراض بلاغية مختلفة يحددها السياق منها: التقرير و الانكار ، النفي و الاثبات، التعجب و التذكير ، التنبيه و التوبيخ و غيرها من الأغراض.

فالاستفهام المجازي هو الذي تهتم به البلاغة العربية عموما و البلاغة القرآنية خصوصا بغرض المحاججة و الاقناع.

الاستفهام في سورة يوسف: لعل الاستفهام بنوعيه الحقيقي و المجازي كان حاضرا في سورة يوسف.

أ_الاستفهام الحقيقي في سورة يوسف:

و أما الاستفهام الحقيقي هو ما كان بغرض الاستفسار فقط أي: طلب الفهم أو العلم بالشيء كقوله تعالى على لسان الملك:{قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾}[2]

فالاستفهام في قوله:(مَا خَطْبُكُنَّ) حقيقي غرضه الاستفسار و طلب معرفة و فهم تفاصيل القضية المتمثلة في حادثة المراودة.

و كقوله تعالى: أيضا على لسان(إخوة يوسف عليه السلام) اثر اتهامهم بالسرقة:﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ٧١﴾[3]

ففي قولهم{ مَّاذَا تَفۡقِدُونَ}؟استفهام حقيقي أريد به الاستفسار عن الشيء المفقود أو المسروق.

ب-الاستفهام غير الحقيقي (المجازي) في سورة يوسف:

و أما الاستفهام المجازي على اختلاف أغراضه البلاغية و هو الأهم في هذه الدراسة ؛ كونه يشكل بيت القصيد في بناء العملية الحوارية الإقناعية، و هذا ما سأحاول الخوض فيه بالشرح و التحليل و الاستدلال قصد اثباته و توضيحه.

ب1_استفهام اخوة يوسف لوالدهم:

قال الله تعالى- : ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١﴾ [4] **فصيغة** السؤال ﴿ مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ؟ إنّما تدلّ على تكرار وتعدّد محاولاتهم الرّاميّة إلى أخذ أخيهم معهم ،وتنفيذ مؤامرتهم ضده ، والتي يبدو أنّها قد باءت كلّها بالفشل نتيجة رفض يعقوب -عليه السّلام - لطلبهم ولكنّهم لم يتوانوا عن تنفيذ خطّتهم، فظلّوا حريصين على ذلك بإلحاحهم على والدهم وتوكيداتهم له بحفظ أخيهم ورعايته﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ و﴿ إنا له لحافظون ﴾ قصد التّأثير عليه ليتراجع عن رأيه المتمثل في الامتناع وإقناعه بفكرتهم وطلبهم .

وقولهم : ﴿ يَٰٓأَبَانَا﴾« بهذا اللّفظ الموحي المذكّر بما بينه وبينهم من آصرة »[5]

له تأثير نفسيّ وسلوكيّ على شخصيّة والدهم ، فنداؤهم له بصيغة الجماعة فيه نوع من الاستمالة العاطفيّة من خلال دغدغة مشاعر الأبوّة لديه قبل توجيه السّؤال ﴿ مالك لا تأمنا على يوسف ﴾؟

« سؤال فيه عتب وفيه استنكار خفيّ ، وفيه استجاشة لنفي مدلوله من أبيهم ، والتّسليم لهم بعكسه وهو تسليمهم(يوسف) ، فهو كان يستبقي(يوسف) معه ولا يرسله مع إخوته إلى المراعي والجهات الخلوية التي يرتادونها لأنّه يحبّه ويخشى عليه ألاّ يحتمل الجوّ والجهد الذي يحتملونه وهم كبار ، لا لأنّه لا يأمنهم عليه فمبادرتهم له بأنّه لا يأتمنهم على أخيهم وهو أبوهم ، مقصود بها استجاشته لنفي هذا الخاطر، ومن ثمّ يفقد إصراره على احتجاز يوسف ، فهي مبادرة ما كرة منهم خبيثة !»[6]

و« صيغة السّؤال تشي بما يمكن أن يبيتوه ،وهي ظاهرة تتحدّث عن نفسها في سياق آخر ، سياق المنافقين الذين كانوا يأتون إلى رسوله . صلّى الله عليه وسلّم . ويشهدون الله على ما في قلوبهم وهم كاذبون »[7] ، **قال تعالى** : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۘ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾[8]

يقول **(ابن عاشور)** : « ولعلّ يعقوب . عليه السّلام . كان لا يأذن ليوسف . عليه السّلام . بالخروج مع إخوته للرّعي أو للسّياق خوفا عليه من أن يصيبه سوء من كيدهم أو من غيرهم ، ولم يكن يصرّح لهم بأنّه

لا يأمنهم عليه ولكنّ حالــه في منعه من الخروج كحال من لا يأمنهم عليه فأنزلوه منزلة من لا يأمنهم ، وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان »[9]

إذا فالغرض من استعمال الاستفهام هو الإنكار على نفي الائتمان للائتمـان، أي: أنّ الغاية من توظيف إخوة (يوسف) لهذا الاستفهام(مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا) هي التّأثير على أبيهم ليتراجع عن فكرة امتناعه بترك(يوسف) يذهب برفقتهم ، فكان النّداء يلفظ ﴿ يا أبانا ﴾ والاستفهام الإنكاري ، والجملة الاعتراضيّة المؤكّدة ﴿ إنا له لناصحون ﴾ بمثابة مقدّمة تأثيريّة إقناعيّة لتحقيق الردّ الايجابي عن طلبهم المتمثل في قولهم: ﴿ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾[10]

ب-2-استفهام امرأة العزيز لزوجها:

وقال- سبحانه وتعالى -: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ [11]﴾

على إثر مراودة زوجة العزيز ليوسف -عليه السّلام - و امتناعه عنها ركض جريا نحو الباب قاصدا الفــرار و الهروب من هذه المحنة الخطيرة و المأزق الكبير المتمثل في إغواء و إغراء المرأة للرّجل بجمالها وجسدها و إثارته جنسيّا لممارسة الفاحشة وتعقّبها له محاولة منعه ، تتفاجأ بزوجها أمام الباب ، فتبادره بقولها ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾ قبل أن يسألها هو دفعـا أو درءا للتّهمة والشبهة و الشكّ .و لكنّها امرأة تعشق فهي تخشى عليه ، فتشير بالعقاب المأمون ﴿ إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ ﴾[12] فالعقاب بالسّجــن أو الضّرب لا يودي بحياة (يوسف)، فهي إنّما تريد باقتراحها هذا العقاب أن تبعد شكّ زوجها فيها ، و أن تقنعه ببراءتها ، وعفّتها و طهارتها و إخلاصها في حبّها له، هذا من جهة ، و من جهة أخرى تريد أن تردع (يوسف) حتّى يقبل بحبّها و يستجيب لرغبتها.

فلو أرادت أن تدفع الشبهة و تبرئ نفسها أمام زوجها فقط، لاكتفت في اتّهامها ليوسف بالاستفهام ﴿ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا ﴾ ؟ دون أن تقترح أو تشيـر إلى نوع العقوبة.

و يكون هذا الغرض من هذا الاستفهام حينئذ الاستفسار، أي طلب معرفة العقوبة التي يحدّدها زوجها.

و لكن لمّا أشارت إلى زوجها بنوع العقوبة خرج استفهامها إلى غرض **التقرير و التنبيه**، أي : تقرير نوع العقوبة و تنبيه زوجها عليها. فيكون المعنى المتضمّـن في استفهامها على هذا النحو : ﴿ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ ﴾.

يقول **(ابن عاشور)**: « و ابتدرته بالكلام إمعانا في البهتان بحيث لم تتلعثم ، تخيّل له أنّهـا على حقّ، وأفرغت الكلام في قالب كلّي ليأخذ صيغة القانون، و ليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها فلا يسع المخاطب الإقرار لها و لعلّها كانت تخشى أن تكون محبّة العزيز ليوسف . عليه السّلام . مانعة له من عقابه فأفرغت له

كلامها في قالب كلّي ، و كانت تريد بذلك أن لا يشعر زوجها بأنّها تهوى غير سيّدها و أن تخيف(يوسف) من كيدها لئلاّ يمتنع منها مرة أخرى[13] »

يفهم من قول **(ابن عاشور)** أنّ زوجة (العزيز) كانت سبّاقة في اتّهام يوسف -عليه السّلام- زورا وبهتانا و بطلانا دون تلعثم حتّى تبرّئ ساحتها ، و تثبت التّهمة عليه ، كما أنّها لم تخصصه في اتّهامها له، أي لم تذكر اسمه إنّما استعملت الاسم الموصول العام[14] (14) أو المشترك (من) حتّى يأخذ الحكم طابع الكليّة والشموليّة و حدّدت نوع العقوبة و الجزاء. ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: أنّه أي إنسان مهما كان يتجرّأ على زوجتك أو يتعرّض لها بسوء لابدّ أن يكون جزاؤه السّجن أو العذاب الأليم. و بهذا أخذ الكلام صبغة قانونية و قاعدة تضليلية تجعل المتلقّي يقتنع به و لا يراوده فيه الشكّ ، إذ أنّ اتّهام (زليخة) ليوسف في الإطار العام و الشامل باستعمال الاسم الموصول العام (من)، و تحديدها للجزاء أو العقوبة التي يستحقّها محاولة منها لإقناع زوجها بصدقها و براءتها و إثبات التّهمة على يوسف . عليه السّلام- ، كما أنّها محاولة لإخافة (يوسف) من كيدها حتّى يقتنع بأنّها ذات سلطة و كلمة مسموعة، فلا يحاول أن يتملص أو يمتنع منها مرة أخرى.

و هذا ما يؤكده **(أحمد جمال الدين)** بقوله :« و(ما) في كلامها يحتمل أن يكون نفيا لمعنى : ليس جزاء من أراد بأهلك سوء إلاّ السّجن أو العذاب و حينئذ يخرج الكلام مخرج التّقرير و الإخبار. » و يحتمل أن تكون (ما) استفهامية : بمعنى أي شيء جزاؤه إلا السّجن؟ كما تقول : من في الدّار إلا زيد؟ . وحينئذ يخرج الكلام مخرج تجاهل العارف . و تجاهل العارف هو سؤال المتكلّم عمّا يعلمه حقيقة تجاهلا منه لنكتة.

ثم يقول : « و مهما يكن من أمر هذا الأسلوب . إخبارا كان أو استفهاما . فإن امرأة (العزيز) لم تصرح باسم (يوسف) و إنّما استخدمت الموصول العام(من) و ذلك لأنّها تريد تخويف (يوسف) تخويفا يثنيه عن ثباته في موقفه الرّافض للانصياع لإرادتها»[15] ، و فعلا كان لها ما أرادت بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾﴾[16]، والمقصود بالآيات هاهنا هي الأدلّة التي تبرئ ساحة يوسف . عليه السّلام . من التّهمة الباطلة الملقاة على عاتقه.

ب-3-استفهام يوسف – عليه السّلام- للسّجينين:

قال تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾[17]

استهلّ يوسف -عليه السّلام - قوله بالنّداء على السّجينين للفت انتباههما و استرعاء اهتمامهما لما سيأتي من القول، و نداؤه لهما (يا صاحبي السّجن) يعود إمّا لجهله اسمهما و إمّا للإشارة إلى الصّلة أو العلاقة التي أصبحت تربط بينهما في السّجن، فهي صلة المماثلة في الضّراء و التي أصبحت تضاهي صلة القرابة[18].إذن فنداؤهما بهذه التّسمية (يا صاحبي السّجن) تذكير لهما بالصّلة أو العلاقة التي تربطهما ببعضهما البعض، و في هذا استمالة عاطفيّة تمهّد و تهيّئ الجو النّفسيّ لتقبّل الفكرة و الاقتناع بالرّسالة التي ستوجّه لهما من خلال الاستفهام (ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ)؟ كما سبقت الإشارة إلى النّداء

الوارد في لفظ (يا أبانا) من الآية 11 من سورة(يوسف) ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ ؟ يقول **(سيد قطب)** : « هو سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها و يهزّها هزّا شديدا ، إنّ الفطرة تعرف لها إلها واحدا ، ففيم إذن تعدّد الأرباب؟ .. إنّ الذي يستحق أن يكون ربّا يعبد و يطاع أمره ، و يتّبع شرعه هو الله الواحد القهار[19] و في ذلك ردّ لمعتقدهما و تقرير بإبطال دينهما و بناء على هذا فالاستفهام تقريري[20]، و في هذا الاستفهام مخاطبة للعقل إذ لو كان هناك تعدّد للآلهة و الأرباب لتفرّقوا و اختلفوا و تنازعوا فيما بينهم في تسيير نظام الكـون و شؤون الخلق ، و لسادت . بعد ذلك . الفوضى و اختل نظام الكون و الوجود ، بدليل قوله -سبحانه و تعالى -: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[21]، و يقول -عزّ وجلّ -في آية أخرى ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا ﴿٩١﴾يَصِفُونَ﴾[22].»

إذن، فالغاية من توظيف سيّدنا يوسف . عليه السّلام- لهذا الاستفهام ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[23] هي تقرير و إثبات حقيقة تتمثل في وحدانيّة الله ، و نفي التّعدّد . تعدّد الآلهة - بغرض الإقناع بها، والاقناع بها -أي بهذه الحقيقة . يقتضي ويستوجب إخلاص العبادة لله وحده دون سواه .

ب-4-استفهام يوسف لإخوته:

قال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾[24]

فالاستفهام في قول يوسف . عليه السّلام : ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ غرضه التّرغيب: يرغب إخوته وتحفّزهم على الإتيان بأخيهم الصّغير للاستفادة من عطائه وجوده عليهم بالقمح.

وهذا ما يراه **(ابن عاشور)** حيث يقول : « ترغيب لهم في العود إليه، وقد علم أنّهم مضطرون إلى العود إليه لعدم كفاية الميرة التي امتروها لعائلة ذات عدد من النّاس مثلهم ، كما دلّ عليه قولهم بعد ذلك " ذلك كيل يسير"ودلّ قوله " خير المنزلين على أنّه كان ينزّل الممتارين في ضيافته لكثرة الوافدين على مصر للميرة في المنزل : المضيف ، وهذه الجملة كناية من الوعد بأن يوفي لهم الكيل ويكرم ضيافتهم إن أتوا بأخيهم »[25]

فالمقصود بجملة الاستفهام الوارد في قول (يوسف)﴿ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ هو الترغيب بهدف الاقناع ، فبلا شكّ أن إخوة (يوسف) يرون جميل صنيع يوسف . عليه السلام . مع ضيوفه الوافدين عليه من مختلف البلدان، ويتمثل هذا الصّنيع في حسن ضيافتهم ، وإغداقهم كرما وسخاء . وهذا ما سينالونه و يتحصّلون عليـه هم أيضا إن استجابوا لطلبه وأحضروا أخاهم . ويفهم ذلك عن طريق التّلميح و الإشارة بواسطة الكناية المتضمّنة في الاستفهام .

إذا سيّدنا (يوسف) حاول من خلال هذا الاستفهام إقناع إخوته بإحضار أخيهم الصّغير وإغرائهم وتحفيزهم بالكيل والإكرام وحسن الضّيافة .

ب-5-استفهام يعقوب – عليه السّلام- لأبنائه:

قال- سبحانه و تعالى- : ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾[26]

جاء جواب يعقوب . عليه السّلام . على طلب أبنائه . المتمثل في إرسال أخيهم الصّغير غير الشقيق معهم ليكتالوا . في شكل استفهام ﴿ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ ﴾ ؟

فهو استفهام تضمّن معنى السّخرية و الإنكار من طلبهم المؤكّد بحفظ أخيهم بقولهم : ﴿ ...فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾[27] حيث ذكر هذا الكلام يعقوب . عليه السّلام . بالماضي الأليم ، بما فعلوه بيوسف . عليه السّلام . ، ذكره بخيانتهم ومكرهم بعد وعدهم له بحفظ أخيهم ورعايته ، إذ قالوا : ﴿ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾[28]

نفس العبارة تتكرّر ، ونفس التّأكيد ، ونفس السناريو ، فهل يمكن أن يثق بهم يعقوب . عليه السّلام . ويصدّقهم بعد الذي حدث ؟! وكأنّ لسان حاله يقـول : . من خلال الاستفهام السّابق . : ألم يكفكم ما فعلتموه بيوسف بعدما أكدّتم حفظكم له ؟! ألا تستحون بالعودة إلى مثل هذا الطّلب من جديد بعد خيانتكم ومكركم ؟!.

يرى **(ابن عاشور)** : « أن جواب . يعقوب . عليه السّلام . يحتمل معنيين : المعنى الأوّل هو (إنّي آمنكم عليه كما أمنتكم على أخيه)».

والمعنى الثاني هو (ماذا أفاد ائتمانكم على أخيه من قبل حتّى آمنكم عليه؟).

والاستفهام إنكاري فيه معنى النّفي ،فهو يستفهم عن وجه التّأكيد في قولهم ﴿ وإنّا له لحافظون ﴾ ، والمقصود من الجملة على احتماليها هو التفريع الذي في قوله ﴿ فالله خير حفظا ﴾[29] **أي** : خير حفظا منكم فإن حفظه الله سلم وإن لم يحفظه لم يسلم كما لم يسلم أخوه من قبل حين أمنتكم عليه[30] .

يبدو أنّ المعنى الثاني الذي احتمله **(ابن عاشور)** . ماذا أفاد ائتمانكم على أخيكم من قبل حتى آمنكم عليه؟ . من استفهام يعقوب -عليه السّلام . هل آمنكم عليـه إلاّ كما آمنتكم على أخيه من قبل؟ . هو الأقـرب إلى الصّحة من الاحتمال الأول . إني آمنكم عليه كما آمنتكم على أخيه . كون هذا الاستفهام تضمّن معـاني الإنكار و النّفي و العتاب والسّخرية و التّهكم.

و لكنّ توكل يعقوب -عليه السّلام- على الله وثقته به و إيمانه بقدره جعلوه يستجيب لطلب أبنائه المتمثل في إيذانه لهـم باصطحاب أخيهم معهم إلى مصر ليكتالوا رغم استنكـاره و غضبه و عتابه، بدليل تعقيبه علـى الاستفـهام و استئنافه للكلام بقوله: ﴿ فالله خير حافظا و هو أرحم الراحمين ﴾.

إلاّ أنّ هذا التّوكل لم يمنعه من الأخذ بالأسباب ، فليس التّوكل أن تضع ثقتـك بالله و تنتظر قدره و تبقى قابعا في مكانك مكتوف الأيدي لا تحرّك ساكنا فهذا يسمّى تواكلا . و أمّا التّوكل إنّما يكون بعد السّعي و الأخذ بأسباب التّوفيق و النّصر مصداقا لقوله- سبحانه و تعالى-: ﴿ و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب ﴾[31] .

و لعلّ هذا الاستفهام الإنكاري في جواب يعقوب -عليه السّلام- لأبنائه ﴿ هل آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه من قبل؟ ﴾ . باب من أبواب الأخذ بالأسباب ، و كذا في قوله ﴿قَال لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ ﴾[32]

إذن جعل يعقوب . عليه السّلام- أمر موافقته على طلب أبنائه مشروطا بإتيانهم موثقا من الله ﴿قَال لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ ﴾[33] أي: لتقسمنّ لي بالله قسما يربطكم أن تردّوا عليّ ولدي إلاّ إذا أغلبتم على أمركم غلبا لا حيلة لكم فيه، و لا تجدي مدافعتكم عنه [34]،﴿فَلَمَّا ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾ فقوله تذكير لهم بأن الله رقيب على ما وقع بينهم و هذا توكيد للحلف[35] ، وبهذا يكون يعقوب -عليه السّلام . قد أخذ بأسباب تحقيق الحماية و الأمن والسّلامة لابنه إذ أقام عليهم الحجة بقسمهم و إشهاد الله- سبحانه و تعالى- عليهم.

قال- سبحانه و تعالى -: ﴿قَالُو فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[36].

يرى **(ابن عاشور)** : أنّ الغرض من هذا الاستفهام هو التّحكيم لأنّهم لا يسعهم إلاّ أن يعيّنوا جزاء يؤخذون به ، فمن هذا تحكيم المرء بذنبه. و معنى ﴿ ما جزاؤه؟ ﴾ : « ما عقابه؟ » و ضمير « جزاؤه » عائد إلى الصّواع بتقدير مضاف دلّ عليه المقام ، أي جزاء سارقه أو سرقته ؟ ﴿قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[37].

و المعنى أنّ من وجد في رحله الصّواع هو جزاء السّرقة ، أي تكون ذاته عوضا عن هذه الجريمة ، فيصير رقيقا لصاحب الصّواع ليتمّ معنى الجزاء بذات أخرى و ليس المراد قتله.

و جملة (فهو جزاؤه) توكيد لفظي لجملة(جزاؤه من وجد في رحله) لتقرير الحكم و عدم الإفلات منه.

إذا الغرض من هذا الاستفهام هو إقامة (يوسف) الحجّة على إخوته بجعلهم ينطقون هم بالحكم الذي يتقاضون به ويتحاكمون إليه في شريعتهم و قضائهم و نظام حياتهم ألا و هو أخذ السّارق أسيرا أو عبدا لدى المسروق له "و هنا ينكشف طرف التّدبير الذي ألهمه الله ليوسف ، فقد كان المتّبع في دين يعقوب -عليه السّلام- أن يؤخذ السّارق رهينة أو أسيرا أو رقيقا في مقابل ما يسرق . و لما كان إخوة(يوسف) موقنين بالبراءة فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنّه سارق"[38]، و بهذا الكيد و التّدبير الإلهيين استطاع (يوسف) أن يبقي أخاه معه دون إثارة أي شبهة أو شكّ في الأمر لدى إخوته، بل جعلهم يظنّون بأخيهم ظنّ السّوء و يتّهمونه بالسّرقة بدل الدّفاع عنه و الأدهى و الأمر أنّهم يتّهمونه بالسّرقة هو و أخوه يوسف زورا وبهتانا و ظلما و هم أمامه في حضرته و مجلسه . عليه السّلام . (۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ 39﴿٧٧﴾)

ب-6-استفهام كبير إخوة يوسف لإخوته:قال -عزّ من قائل- :﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمُونِى فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ 40﴿٨٠﴾ ﴾

بعد أن يئس إخوة يوسف من محاولة استعادة أخيهم الصّغير و انتزاعه من قبضة يوسف عن طريق استعطافه بأنّ له أبا شيخا كبيرا و عرضهم بأن يأخذ أحدهم بدله : ﴿قَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۖ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[41].راح أكبرهم سنّا يذكرهم بالميثاق الذي أخذه عليهم أبوهم في الحفاظ على أخيهم الصّغير و ردّه إليه ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ﴾ ؟ كما ذكرهم بجريمتهم السّابقة ضدّ (يوسف) ﴿ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ و لهذا السّبب قرّر البقاء في مصر و عدم الرّجوع مع إخوته.

يقول **(ابن عاشور)** : « والاستفهام في ﴿ ألم تعلموا ﴾ تقريري مستعمل في التّذكير بعدم اطمئنان أبيهم بحفظه لابنه. »

وجملة ﴿ ومن قبل ما فرّطتم ﴾ جملة معترضة ، و(ما) مصدريّة ، أي تفريطكم في يوسف . عليه السّلام . كان من قبل الموثق ، أي فهو غير مصدّقكم فيما تخبرون به من أخذ (بنيامين) ، إذ لا يرضى لنفسه أن يبقى غريبا لولا خوفه من أبيــه ،ولا يرضى بقيّة أشقّائه أن يكيدوا له كما يكيدون لغير الشقيق[42].

وتذكير الأخ الأكبر لإخوته بالميثاق وبما فعلوه بيوسف دون سواه يحتمل أمرين :

الأول : أن يكون يعقوب . عليه السّلام . قد أوصاه وكلّفه هو باعتباره الأكبر سنّا ، وربّما المسؤوليّة يتحمّلها . عادة . كبير إخوته ، فاستحيى أن يعود دون أخيه الصّغير ، بعد الميثاق أو القسم الذي أخذه عليهم والدهم ، خاصّة وأنّ هذه ليست الأولى ، فلقد فرّطوا في (يوسف) من قبل ، بعد وعدهم برعايته وحمايته والحفاظ عليه.

و الثاني : ربّما كان له أبناء فشعر بعاطفة الأبوّة ،و عرف قيمة أبنائه ومنزلتهم في قلبه ، فأحسّ بتأنيب الضّمير ، وأدركته شفقة على والده الذي أصبح لا يطيق ولا يحتمل المآسي بتأنيب الضّمير ، بعد كلّ ما عاناه من أحزان أنهكت قواه ،وهموم هدّت بدنه نتيجة فقده ليوسف . عليه السّلام . .

وربّما تكون هذه الأسباب المجتمعة هي التي منعته من العودة مع إخوتــه إلى الدّيار، فيكون بقاؤه في مصر كما يقول **(ابن عاشور)** علامة دالّة على صدق قولهم في سبب عدم رجوع أخيهم معهم أي أنّ يعقوب . عليه السّلام . سيؤوّل علامة بقاء ابنه في مصر بخوفه منه ،إذ لا يمكن لإخوته الأشقّاء أن يكيدوا له مثل كيدهم لأخيهم غير الشقيق وهذه علامة دالّة على صدقهم .

إذاً بقاء (روبين) في مصر محاولة لإقناع أبيه بصدقهم هذه المرة وبالتّالي فعلامة البقاء هي أسلوب إقناعي.

والسّؤال الذي يطرح هنا هو ما الذي كان يقصده **(ابن عاشور)** بخوف الأخ الأكبر ليوسف من أبيه ؟

هل هو الخوف من العقوبة النّفسيّة . بعد عدم التّصديق . كالتّأنيب والعتاب واللوم ؟ أم الخوف من العقوبة الماديّة كالضرب والسّجن مثلا ؟.

وأظنّ أنّ هذا الأخير مستبعد لأنّه لو كان كذلك لعاقبهم به إثر تفريطهـــم أو تضيعهم ليوسف- عليه السّلام-

ب-7-استفهام يوسف لإخوته عن جريمتهم:

قال - جـلّ جلالــه : ﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[43].

جاء استفهام يوسف . عليه السّلام . بقوله : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟ ﴾ . ردًّا على طلب إخوته المقرون بتوسّلهم واستعطافهم له بأن يقبل استبدال بضاعتهم بالقمح ،وإيفاء الكيل لهم والتصدّق عليهم. ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾[44].

فالنّداء في قولهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ ﴾ للفت انتباهه إلى الحالة المأسويّة المزريّة التي آلوا إليها وهي معاناة الفقر والجوع ، ولفظة (ٱلۡعَزِيزُ) هي لقب التعظيم تحمل في طياتها استعطافا وتوسّلا ثمّ التّصريح بحالتهم ﴿ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ ، أي : ألم الفقر والجوع و محاولة لاستعطاف واسترحام يوسف والتّأثير فيه ليستجيب لهم وهذا الاستعطاف ﴿ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ ، تمهيد مؤثر نفسيّا وعاطفيّا يسهم ويدعـّم في عمليّة الاستجابة لطلبهم ﴿ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ ﴾ ثم التذكير بثواب الله -عزّ وجل- الذي يمنحه للمتصدّقين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾ جاء تدعيما لطلبهم ومحاولة منهم لإقناع (يوسف) به .

يرى **(الزركشي)** أنّ الغرض من الاستفهام ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؟ هو تذكير (يوسف) لإخوته بالجرائم التي ارتكبوها في حقّه[45]، إذ رموه في الجبّ وهو صبيّ صغير ، وباعوه بأبخس الأثمان ، وأبعدوه عن والده وعشيرته وأرضه ، وما فعلوه أيضا بأخيه الصّغير ، بعد المكيدة التي نصبها له، إذ أنّه بدل أن يدافعوا عنه راحوا يثبتون عليه التّهمة ويقذفون (يوسف) بالسّرقة ظلما وبهتانا حيث ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾[46] وهذا التّذكير مقرون بالعتاب والاستنكار والدّليل هو وصفه لهم بالجهل ﴿ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾.

وأمّا **(ابن عاشور)** فيرى أنّ هذا « الاستفهام مستعمل في التّوبيخ و (هل) مفيدة للتّحقيق لأنّها بمعنى (قد) في الاستفهام ، فهو توبيخ على ما يعلمونه محققا من أفعالهم مع يوسف . عليه السّلام . وأخيه أي أفعالهم الذميمة بقرينة التّوبيخ »[47]

وما دام أنّ (هل) هنا بمعنى (قد) التي تفيد التّحقيق فإنّ الاستفهام تقريـري في قوله : ﴿هَل عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؟ بمعنى : قد علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ، و الغرض من التقرير هو التذكير على رأي **(الزركشي)** ، والتوبيخ على رأي **(ابن عاشور)** .

إذ الغاية من هذا الاستفهام التّقريري هو تذكير وتوبيخ إخوته على جرائمهم التي ارتكبوهـا في حـقّه وفي حقّ أخيه ،و كأنّ لسان حاله يقول : أبعد كل الذي فعلتموه بيوسف ، جئتم الآن تتوسّلون إليه وتستعطفونه بأن يوفي لكم الكيل ويتصدّق عليكم ؟! أفلا تستحيون؟!

ب 8. استفهام إخوة (يوسف) ليوسف -عليه السّلام:

وتجدر الإشارة إلى أنّ استفهام يوسف . عليه السّلام . كان علامة توصّل بها إخوته إلى التّعرف عليه فجاء ردّهم على استفهامه في شكل استفهام: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[48] .

والاستفهام في قولهم ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ ﴾ ؟ تقريريّ كونهم أدركوا من استفهامه . هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟- بأنّه (يوسف) أخوهم. والغاية من استفهامهم هي تأكيد التّقرير ، إذ المعنى المراد منه هو(إنّك لأنت يوسف) إثبات وتأكيد بحرف التّوكيد (إنّ) ولام الابتداء التي تفيد التّوكيد، وضمير الرّفع المنفصل (أنت)،الذي أفاد التّوكيد أيضا هنا باعتباره بدلا من الضمير المتّصل (الكاف) في (إنّك) والاستفهام بالهمزة ﴿ أئنّك لأنت يوسف ؟ ﴾ زيادة في التّأكيد والتّقرير يقول **(ابن عاشور)** في تفسيره « بأنّ قولهم : ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ ﴾ يدلّ على أنّهم استشعروا من كلامه ثمّ من ملامحه ثم من فهم قول أبيهم لهم : ﴿ وأعلم من الله مالا تعلمون ﴾ إذ قد اتّضح لهم المعنى التّعريضيّ من كلامه فعرفوا أنّه يتكلّم مريدا نفسه ,وتأكيد الجملة بـ (إنّ) ولام الابتداء وضمير الفصل لشدّة تحقّقهم أنّه يوسف -عليه السّلام - ,وأدخل الاستفهام التّقريريّ على الجملة المؤكّدة لأنّهم تطلّبوا تأييده لعلمهم به»[49] يفهم من قول **(ابن عاشور)** بأنّ إخوة يوسف تعرّفوا على أخيهم (يوسف) من خلال كلامه المتمثل في الاستفهام " هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلـــون ؟ " ثم من ملامحه أي التّغيّرات الفيزيولوجيّة التي تطرأ على الوجه والجسد مصاحبة للحالات النّفسيّة والانفعاليّة كتقلّص عضلات الوجه واحمرار الوجنتين وجحوظ العينين واقتران الحاجبين ، والارتعاش وما شابه ذلك، ولابد أنّ يوسف . عليه السّلام . انتابته مثل هذه الحالات النّفسيّة أثناء استفهامه لإخوته الذي أراد به تذكيرهم بجرائمهم وتوبيخهم عليها فشعر بنوع من الغضب والحزن والأسف والحسرة ,ولاشكّ أنّ هذه الحالات النّفسيّة الانفعاليّة قد انعكست وارتسمت على ملامح وجهه وجسده . عليه السّلام . كشخوص البصر، وهزّ الرّأس وحركة اليدين ونبرات الصّوت ،والآهات ،و التّنهيدات وغيرها .

وربّما تظهر هذه الملامح ضعيفة وقليلة نوعا ما كون يوسف -عليه السّلام- نبيّ يتّسم بالحكمة ،ويتحكّم في أعصابه ويكبح جماح نفسه وانفعالاتها لأنّه يتّصف بالصّبر والتّسامح والعفو، ودليل ذلك في الصّبر هو قوله ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[50].

أمّا التّسامح والعفو ففي قول الله تعالى على لسان يوسف -عليه السّلام- ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾[51]

فقول (يوسف) المتمثل في الاستفهام والملامح المصاحبة له أمارتان تـذكّر من خلالهما إخوة يوسف قول أبيهم الذي لم ينتبهوا إليه ساعتها ولم يتدبّروا معناه ﴿... وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾[52] تذكّروا بأنّ والدهم يعقوب . عليه السّلام- نبيّ يوحى إليه ولذلك هو أعلم منهم .فهو يعلم بأنّ الله رحيم بعباده يأبى الظلم ويظهر الحقّ ويزهق الباطل ولو بعد حين ، ولذلك كان إيمانه بالله كبيرا وثقته به قويّة ورجاؤه فيه لا ينقطع بدليل قوله -عزّ وجل -على لسانه : ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[53].

إذا كلام يوسف . عليه السّلام . و الملامح الفيزيولوجيّة المصاحبة له ،وتذكّر إخوة (يوسف) قول أبيهم كلها علامات وأمارات استدلّوا بها على أخيهم يوسف . عليه السّلام .

ب 9 . استفهام يعقوب . عليه السلام . لأبنائه معاتبا إياهم :

قال -سبحانه وتعالى -: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[54] .

لقد جاء استفهام يعقوب . عليه السّلام . في قوله : ﴿ أَلَم أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ ؟ جوابا وردّا على قول أبنائه ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾[55].

يقول **(ابن عاشور)** : « جواب للبشارة لأنّها تضمنت القول ، ولذلك جاء فعل (قال) مفصولا غير معطوف لأنّه على طريقه المحاورات »[56].

والغرض من استفهام يعقوب . عليه السّلام . هو عتاب أبنائه على عدم تصديـقه في أمله وتفاؤله بإيجاد يوسف . عيه السّلام . حيًّا ، حيث أنَّ ذكره ليوسف كان يغضبهم ويفقدهم صوابهم إلى درجة إغلاظهم له في القول :" تالله إنّك لفي ضلالك القديم " هذا من جهة، ومن جهة أخرى تذكيرهم بأنّ الله - سبحانه وتعالى- وهبه العلم كونه نبيّا يتنزّل عليه الوحي فيعرف به أمورا وأسرارا لا يمكن لأبنائه أن يدركوها بدليل قوله :" إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون "ولذلك كان رجاؤه في الله لا ينقطع.

وفعلا يتحقّق رجاء يعقوب وتأتي البشرى بسماع الخبر السّعيد ، (يوسف) على قيد الحياة ، ويرتدّ له بصره .

كلّ هذه الأمور جعلت إخوة (يوسف) يقتنعون بنصرة الله للحقّ على الباطل فيعترفون بذنوبهم وأخطائهم، ويطلبون من والدهم أن يستغفر لهم ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[57].

ولكنّ أباهم مازال متألّما وجريحا، ولم يلن قلبه بعد من ناحيتهم . رغم فرحته الغامرة وسعادته التي لا توصف بعد معرفته بأنّ يوسف ما زال حيّا يرزق . بدليل قوله تعالى على لسان يعقوب . عليه السّلام . ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾[58].

يقول **(سيد قطب)** : « وحكاية عبارته بكلمة (سوف) لا تخلو من إشارة إلى قلب إنسانيّ مكلوم ،أي أنّ يعقوب . عليه السّلام . كونه مازال جريحا ومتألّما ممّا سبّبه له أبناؤه من معاناة وأحزان ، وظّف لفظة (سوف) التي تفيد المستقبل البعيد ليرجئ بذلك طلب أبنائه المتمثل في الاستغفار لهم إلى حين تطيب نفسه ، ويصفو قلبه ، وتلتئم جراحه وتخفّ آلامه وأحزانه »[59].

خاتمة:

وخلاصة القول أن الاستفهام في سورة يوسف كان ذا أهمية بالغة في العملية التواصلية التبليغية، وفي بناء دائرة الحوار بين شخصيات القصة، سواء ما دار بين اخوة يوسف و أبيهم يعقوب عليه السلام . أو ما دار بينهم و بين أخيهم يوسف . عليه السلام . أو ما دار فيما بينهم اخوة يوسف مع بعضهم البعض . أو بين يوسف . عليه السلام . و السجينين.

و يشكل الاستفهام المجازي على اختلاف أغراضه البلاغية . سواء كان تقريرا أو انكارا، عتابا أو توبيخا، تنبيها أو تذكيرا . لبنة أساسية في بناء العملية الحجاجية داخل اطار حلقة الحوار وصولا الى تحقيق الهدف المتوخى ألا و هو الاقناع.

و على هذا الاساس فان أهم النتائج التي يتم التوصل اليها من هذه الدراسة هي:

1)يسهم أسلوب الاستفهام بنوعيه الحقيقي و غير الحقيقي في بناء العملية التواصلية التبليغية.

2)يعتبر الاستفهام المادة الاولية و الأساسية في تشكيل حلقة الحوار بل يعتبر وقودا له ؛ اذ لا يمكن أن يقوم حوار بدون استفهام، أو مجرد تصور حوار بدون استفهام.

3)تشكل الأغراض البلاغية للاستفهام المجازي مادة حجاجية تسهم في تحقيق عملية الاقناع.

4)تظهر حجاجية الاستفهام التقريري في حمل المخاطب على الاعتراف بالحقيقة الثابتة دون جبر أو قصر وصولا الى اقناعه.

5)غاية الاستفهام الانكاري هي تنبيه السامع أو المتلقي ليراجع نفسه و يرجع عن خطئه، و يعود الى رشـــده وصوابه.

6)يسهم الاستفهام المجازي في الاقتصاد اللغوي، أي: الايجاز و الاختصار في الكلام وهو غاية البلاغة التي تسعى الى توفير الجهد و ربح الوقت.

7)الاستفهام المجازي على اختلاف أغراضه البلاغية_و لا سيما غرضي التقرير و الانكار. يعتبر أسلوبا حجاجيا و اقناعيا ناجعا في عملتي الحوار و التبليغ . لا يقل أهمية عن مختلف الأساليب الحجاجية و الاقناعية الأخرى.

هوامش البحث:

[1] ابن منظور .لسان العرب : ج10 : ص343

[2] سورة يوسف الآية51

[3] سورة يوسف الآية71

[4] سورة يوسف الآية11

[5] سيد قطب : في ظلال القرآن مج 4، ج12 ، ط 15، ص 1974

[6] سيد قطب المصدر نفسه الصفحة نفسها

[7] أبو حمدة محمد علي : في التذوق الجمالي لسورة يوسف مرجع سابق ص 64

[8] سورة المنافقون الآية 01

[9] ابن عاشور محمد الطاهر:" تفسير التحرير والتنوير " ص 227

[10] سورة يوسف الآية 12

[11] سورة يوسف الآية 25

[12] سيد قطب، في ظلال القرآن مج4، ج12 ص1982

[13] محمد طاهر بن عاشور: تفسير التحرير و التنوير، ج12 ص256.

[14] و يسمى بالعام لأنه يشترك فيه المفرد و المثنى و الجمع ، و المذكر و المؤنث.

[15] أحمد جمال الدين : لغة الحوار في سورة يوسف، دراسة أسلوبية ، أقوال يوسف و إخوته و امرأة العزيز نموذجا، ص16

[16] سورة يوسف ، الآية 35

[17] سورة يوسف ، الآية 39

[18] ينظر محمد طاهر بن عاشور: التحرير و التنوير، ج12 ص274

[19] سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج12 ص1989

[20] ينظر محمد طاهر بن عاشور، المصدر نفسه و الصفحة نفسها.

[21] سورة الأنبياء ، الآية 22

[22] محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ج 13 ص 13

[23] سورة يوسف الآية75

[24] سورة يوسف الآية 59

[25] محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ج 13 ص 13

[26] سورة يوسف الآية 64

[27] سورة يوسف الآية 63

[28] سورة يوسف الآية 12

[29] " حفظا" مصدر منصوب على التمييز في قراءة الجمهور .وقرأه حمزة والكسائي وحفص " حافظان " على أنه حال من اسم الجلالة وهي حال لازمة في ابن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ج 13 ص 16

[30] ابن عاشور : المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

[31] سورة هود، الآية 88

[32] سورة هود ، الآية 66

[33] سورة يوسف الآية75

[34] مجازا في الحالة التي لا يستطاع التغلب عليها " في محمد الطاهر بن عاشور" المصدر نفسه. الصفحة نفسها.

[35] سيد قطب : في ظلال القرآن ج13 ص2017

[36] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التنوير، ج13 ص20

[37] سورة يوسف ، الآية 74

[38] سورة يوسف الآية75

[39] سيد قطب، في ظلال القرآن ج13 مج 4 ص2019

[40] سورة يوسف الآية 77

[41] سورة يوسف الأية 80

[42] سورة يوسف الآية 79/87

[43] محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ج 13 ص 39 -40

[44] سورة يوسف الآية 89

[45] سورة يوسف الآية 88

[46] الزركشي : البرهان في علوم القرآن ج 2 ،ط1 دار إحياء الكتب العربية القاهرة 1958 ص 340

[47] سورة يوسف الآية 77

[48] ابن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ج 13 ص 47

[49] سورة يوسف الآية 90

[50] محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ج 13 ص 48 . 49

[51] سورة يوسف الآية 90

[52] سورة يوسف الآية 92

[53] سورة يوسف الآية 86

[54] سورة يوسف الآية 87

[55] سورة يوسف الآية 96

[56] سورة يوسف الآية 95

[57] محمد الطاهر بن عاشور . تفسير التحرير والتنوير ج 13 ص 54

[58] سورة يوسف الآية 97

[59] سيد قطب في ظلال القرآن ص 2028